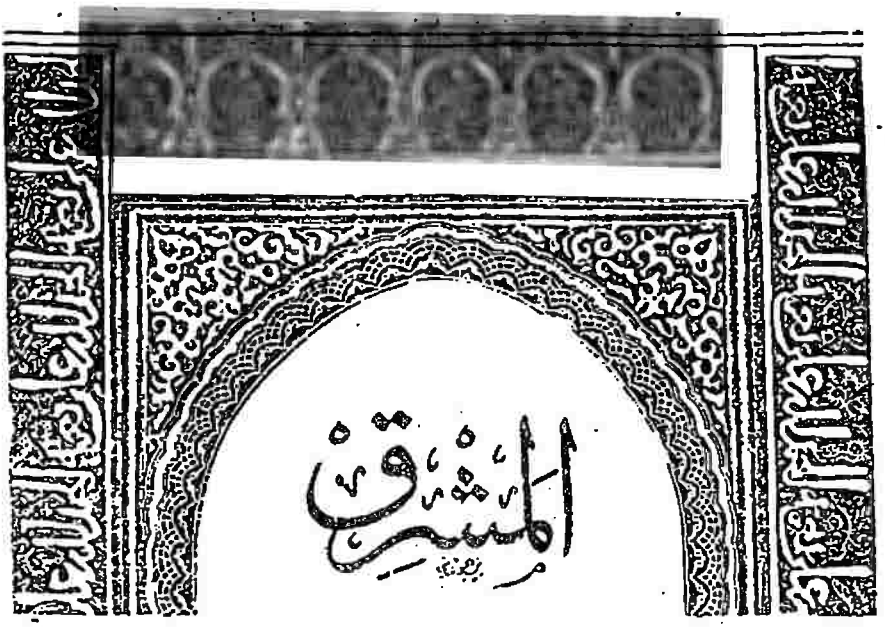

السنة الثلاثون — شباط ١٩٣٢

صفحة ذهبية من تاريخ لبنان

البطريرك اللبناني
الياس بطرس الحويك
١٨٤٢-١٩٣١

بقلم الخوري منصور عوّاد عوّاد

١

من الناس مَنْ وُلدوا ليكونوا كبارًا ومن اولئك الناس البطريرك اللبناني الياس بطرس الحويك المنبوط الذكر الطيب الاثر . فاذا ما رأيت نجماً ساطعاً يتألق في كبد السماء يبشرك برجل عظيم ، يصلح ، ام يخلص للعالم ، فلا تفتش عن هذا الرجل في هياكل الفراعنة ، ولا في ايوان كسرى ، او في قصر الملك هيرودس ، او على عروش امبراطرة رومية ، بل سر وراء النجم مع قافلة التجار الاسماعيليين فتجد يوسف منقذ مصر ، حدثاً راعي غنم وابن راعي غنم ، في قعر بئر مرميًا حسدًا من اخوته ليُقضى فيه

عليه وعلى احلامه[1] ؟ بل سر بقدم ثابتة على خطوات الفتاة الاسرائيلية الوجلة الى شاطئ النيل في مصر، فتلاقي موسى كليم الله طفلاً مطروحاً في سفط عند حافة النهر ليموت مع اطفال العبرانيين بحكم فرعون القاسي الذي لم يعرف يوسف![2] ؟ ولا تبحث عن داود ملك اسرائيل وجبار الملوك والشعراء والانبياء في بلاط شاول الملك، ولا في بيت ابيه مع اخوته، بل بين قطعان الغنم ورعاته في قفر بيت لحم[3] ؟ واذا غاب عنك النجم في اورشليم مدينة الملوك والانبياء والمواعيد الالهية، فلا تيأس بل اخرج منها مع الملوك المجوس ويتم بيت لحم فيعود النجم الى ظهوره وتألقه يهدي خطواتك الى سواء السبيل، ويتقدمك حتى مغارة بيت لحم حيث يقف «فوق الموضع الذي كان فيه الصبي»[4]، فتجد «طفلاً ملفوفاً مضجعاً في مذود»[5]، فاركع امامه فذاك ابن الله مخلص العالم!

أجل فلنفتش عن اعاظم الرجال، في تاريخ البشرية الديني والدنيوي، في القرى الحقيرة والبيوت الخاملة حيث تمد العناية الالهية في الخفاء الرجال الذين اختارتهم منذ البدء، قبل انشاء العالم، ليكونوا في يدها آلة لاكمال مشيئة الله تعالى على الارض بفعل العظائم! فليس منشأ موسوليني ولا اصل نابوليون الاول او البابا سكستوس الخامس ولا سواهم من اعاظم الرجال الذين اصلحوا البشرية حيث وُجدوا او ظهروا فيها لامعين كشهب السماء، الّا من هذا النوع في الاغلب، ومراجعة التاريخ تقنع المرتاب.

في اليوم الرابع من كانون الاول في مغيب سنة ١٨٤٢[6]، عهدَ كان لبنان مهشماً من تطاحن الجيوش المصرية وجيوش الدولة العثمانية وحلفائها عليه، عهدَ كانت الحروب الاهلية تمزق احشاءه وتقضي على البقية الباقية فيه من الاستقلال والمجد، عهدَ كانت الحروب الدينية والنعرات الطائفية والتعصب الذميم قد اخذت تحلّ فيه محلّ الرخاء والاتفاق والاستقلال، عهدَ كان نجم

١) سفر التكوين ف ٣٧.
٢) سفر الخروج ٢ : ٣ و ٤.
٣) سفر الملوك الاول ف ١٦.
٤) متى ٢ : ٦.
٥) لوقا ٢ : ١٦.
٦) وفي رواية اخرى يوم ١٧ ك ١ ١٨٤٢

الامارة الشهابيـة يتوارى وراء الافق الاحمر غائصاً في بحر من الدم والبغضاء والحصام والمطامع الدوليـة ، عندَ كانت الآمال باستقـلال لبنان وبقاء النصرانية في هذا الشرق على وشك الخيبة التامة ، كان اللبنانيون يفتشون عن نجم الامير بشير الكبير المنفي فيتطلعون بعيونهم الى ابراجه التي يتنقل اليهـا بين مالطة والاستانة ؛ ولكن نجم الامير الآفل ما كان ليعود الى الظهور في القريب العاجل كأنه من تلك النجوم التي تظهر كل قرن مرة او كل قرنـين فقط ! وكان من اللبنانيـين من يبحث عن طالع لبنان بـين ابناء الامير او انسبائه، او في الاسرة اللمعية او في اسر لبنان اللامعة كالارسلانية والجنبلاطية وسواها من البيوتات الكبيرة. اما عيون الاكثرية من الموارنة وسواهم في لبنان فكانت متجهـة الى دار البطريركية المارونيـة حيث كان البطريرك العظيم يوسف حبيش قرن الامير الكبير بمواهبه الطبيعية وبطوَ همته ، ورفيقـه في مجده. وكانوا يعلقون عليه بقية آمالهم الضائعة في حقهم بالحرية والاستقـلال والطمأنينة في لبنان.

ولكن العناية الالهية كانت قد اوقفت نجم سعد الطائفة المارونيـة ، والطوائف اللبنانية باجمعها ، على مزرعة حقيرة في لبنان ما خالج ذهناً قط في الشرق انها القرية التي يخرج منها المدبّر الذي يرعى الموارنة ، ويُعيد الاستقلال الى لبنان كله ، لا بالسيف ولا بالقوة بل بالعلم والفضيلة.

أجل في اليوم الرابع من كانون الاول سنة ١٨٤٢ وقف نجم العناية الالهية التي لا تترك بشراً ولا تهمل شعباً سواء اكان صغيراً ام كبيراً حتى ولا لحظة عين، واستقر طالع لبنان فوق حلتا فأبصرنا نساءها على ضوء ذلك النجم البعيـد في الافق وراء السحب المتلبدة في الفضاء بين العواصف الهائجة في ذلك الليـل البهيم ، وعلى ضوء سراج الزيت الضئيل تتلاعب بلهيبـه ارياح كانون ، وهنّ بأزيائهنّ اللبنانية الساذجة ، مبتـهلات يبشرن راعي نفوسهنّ ، الخوري بطرس بن عبود الحويّك بان غرّة ابنة طنوس الحويّك خوريته قد وضعت له ولداً ذكراً، وقلنَ له: جعله الله من ابناء السلامة غرّة لجبينك وقرّة لعينيك ! ونحن اليوم قد عرفنا ذلك المولود غرة في جبين لبنان ، عرفناه المـدبّر الذي

اختاره الله ليدبّر الشعب الماروني ، ورجل العناية الذي انتدبته عناية الله ليتم على يده استقلال لبنان الكبير لجميع ابناء لبنان ، بعد نحو قرن . فيعود بواسطته الى لبنان مجده واستقلاله تحت اشراف فرنسة التي عجزت وقتئذٍ عن المحافظة على استقلال الامارة اللبنانية !

ولو أعطي لاحد ابناء لبنان روح النبوءة في تلك الليلة ، لهتف عند ورود البشرى بذلك المولود الجديد: « وانت يا حلتا ارض « لبنان » لست الصغيرة في رؤساء « لبنان » لانه منك يخرج المدبّر الذي يرعى شعبي « الماروني »[1] . فيجلس على العرش الاول الذي اسسه بطرس الرسول في انطاكية ، على عرش القديس اغناطيوس النوري الشهيد ، خلفاً ليوحنا مارون القديس اول بطاركة الطائفة المارونية في لبنان ، خلفاً للعلّامة اسطفان الدويهي ، ويوسف اسطفان الغسطاوي ، ويوسف حبيش بطريرك الموارنة العظيم ، ويعيد الى لبنان استقلاله كاملاً تحميه قوات فرنسة الغالبة ، لا سيف الامير بشير وحده !

غير ان ما لم يُعطَ لآبائنا ان يتنبأوا عليه ، قد تعاقب علينا في تعيين حجة فسمناه بآذاننا ورأيناه بعيوننا ولمسته ايدينا ، فشاهدنا اصبع العناية الالهية بذلك المولود تتعهده يوماً فيوماً ، وحولاً بعد حول ، من مهده الى لحده ، لتُظهر به العظائم وتفتقد على يده الشعب اللبناني وتعيد للبنان بواسطته مجده الخالد القديم كجباله ، العظيم كبحره ، الناضر كأرزه ، البهي كفجره ، الناصع كثلوج قمه !

العناية الالهية تتعهد مولودها طفلاً وصبياً واكليريكياً

حلتا أصغر مزرعة في بلاد البترون ، بل في لبنان . الا انها جميلة الموقع على قمة جبل مستقل تحيط به الاودية من كل جانب ، لا ماء فيها الا ماء الآبار ، ولا يؤمها غير سكانها ، تُرى من بعيد كنيستها ، ويتجاوب صدى جرسها في الاودية القريبة ، فكأنها قرية من قرى الحكايات !

في مطلع عام ١٨٤٣ كان جرس هذه الكنيسة يقرع فرحاً ، وابناء القرية

---

١) متى ٢ : ٦

يطوفون وراءه كاهنهم الخوري بطرس في رتبة زياح عماد ابنه ، وقد دُعي مولوده الياس.

الوالد كاهن تقي جدًّا ، والوالدة خورية اتقى وانقى. يحمل كلٌّ منهما في بردتيه ، بل في نفسه وجسمه ، تقاليد الموارنة اللبنانيين القدماء ابناء الجبال ، اي تقاليد السذاجة والقداسة ، في اكمل معانيهما. ورثوا الفضائل عن آبائهم وجدودهم ، وحافظوا عليها نقية فوق تلك الرابية لا يجرؤ على النظر اليها الا اشعة الشمس في النهار ، وضوء القمر في الليل.

الناس يظنون ان الذي يتربّى في محيط كبير ، كبلاط الملك او حاشية امير او في ظلال عالم علّامة او سياسي محنك ، يدب ويشب على روح عالية كبيرة ، فيتهيأ لمستقبل مجيد كبير. ولكن طرق العناية الربانية غير طرق البشر! فتحت كنف والدة قديسة ووالد قديس ، في الفقر القروي اللبناني التامّ ، نشأ الياس الحويك. وما ان بلغ الادراك حتى شرع والده يعلّمه السريانية والعربية بعناية ، شأنه في ذلك تجاه ابنه شأنه تجاه جميع اطفال القرية. وفي ذلك العهد كان الكاهن في القرية يعيش من المذبح ، اي من صدقات المؤمنين. وكان كل همه الاعتناء بنفوس ابناء الرعية ، وبتهذيب اولادهم وتعليمهم اصول العربية والسريانية ، ولا سيما خدمة القداس وصلاة الخورس؛ مدرسته ساحة الكنيسة يلتف الاولاد حوله حلقة تحت سنديانة الكنيسة ، تلك السنديانة القديمة الايام . وكان الكاهن مرجع المزرعة او القرية في جميع الشؤون ، والسيد المطاع في كل امر!

كانت نفس الياس التقية طمّاحة الى الكمال منذ صغره ، ونفس ابيه كانت اكثر طموحاً. فالخوري بطرس كان يريد ان يعلّم ابنه الياس لانه احسّ ان فيه ميلًا الى الكنيسة وخدمتها ، فحدّثته نفسه ان يجعله خليفة له في الخورنية ولم يتجاوز طموحه الى اكثر من ذلك . والولد شعر بجسّه الطفولي ان اكثر الناس اكراماً في المزرعة ، ونفوذًا ، واقربهم الى الله كان الكاهن. فمال منذ صغره الى الكهنوت ، والعناية الالهية تستخدم هذه القطرات العسلية جاذباً تجتذب به الى غاياتها السامية امثال هذا المولود الجديد!

تقوى في والدته ترافقها ليلًا ونهارًا ، تقوى في والده تظهر في فعله وفي قوله وفي لبسه ، لاجل واجباته الكهنوتية ، مالت به الى الكهنوت فآنس من والده ميلًا الى تحقيق تلك الرغبة ، وآنس الوالد استعدادًا في الولد فما كان منه الّا ان سعى فوضعه في مدرسة مار يوحنا مارون.

غير ان مولود العناية لم تطل اقامته في تلك المدرسة التاريخية التي تشرّفت بان اقام فيها اول بطريرك على الملة المارونية ، اي القديس يوحنا مارون . لان تلك العناية سدّت في وجهه ابواب هذه المدرسة لتفتح امامه ابواب مدرسة اكبر واعظم . وذلك بان انهار جانب من مدرسة مار يوحنا مارون فلم يعد بالوسع ان يكون الياس فيها . فاتجهت انظاره ، وكان قد اتقن العربية والسريانية ، الى مدرسة الآباء اليسوعيين في غزير . وكانت هذه المدرسة قد اشتهرت وقتئذٍ كأكليريكية . ولكن من اين له الوصول الى تلك الاكليريكية ، ولا مال معه مما يُستلزم في بادئ الامر ، ولا واسطة تعرّفه الى آباء المدرسة ؟ ا ان له كل شيء من الله ما دامت العناية الالهية هي التي تدبّره . افليست هي التي سمحت ، فانهار جدار من مدرسة مار يوحنا مارون ، فاقفلت في وجهه ابوابها ؟ بلى وهي التي الهمت احد ابناء حلتا ، وقد كان خصماً للخوري بطرس الحويّك فجاء وعرض عليه ، حبًّا وكرامةً وعفوًا دون ان يكلّفه احد ، المالَ اللازم لايفاد الياس الى مدرسة غزير . هذا ما كان يرويه عن نفسه بطريرك العناية الالهية ، الياس الحويّك ، لي ولسواي مرّات .

انكبّ الياس على الدرس في اكليريكية الآباء اليسوعيين في غزير ، التي دخلها عام ١٨٥٩ ، فاقتبس الافرنسية واللاتينية واليونانية من اللغات ، واما من العلوم فالرياضيات والفلسفة . وما كان يجاريه في حسن السيرة والطاعة والاجتهاد من رفاقه رفيق ، بل كان آية في الذكاء والنجاح والتقدم .

وتاقت نفسه الى ما هو اسمى ، فكان يسمع رومية وبكليات رومية الاكليريكية ، فاحب ان يتخرّج في اللاهوت على اساتذتها ليفيأ بظلّ خليفة القديس بطرس ، نائب المسيح ، ويشبع روحه من روح الكنيسة الرومانية وسعة صدرها وحبها لجميع الناس على السواء وغيرتها على خلاص العالم كله .

تاقت نفسه الى رومية ولم يكن ذلك التوقان الا نفحة قدسية علوية نفختها في قلبه العناية الالهية !

أجل ان الياس قد سمع من احد رفاقه الذين ساقتهم العناية الربانية ذاتها الى مدرسة غزير لاكمال دروسهم ، وقد كان في رومية وغادرها انتجاعاً للصحة في لبنان ؛ سمع ان للموارنة في مدرسة مجمع نشر الايمان المقدس كراسي مجانية ؛ وان هنالك رجلاً مارونياً يُدعى متى شهوان من غوسطا يدرّس اللغات الشرقية . فعمد الى طريقة قد يعتبرها الناس صبيانية ، وبعض رؤساء المدارس مخالفة لقانون المدرسة ، وهي انه كتب الى نيافة كردينال المجمع في ذاك الوقت يلتمس منه ان يقبله في عداد الاكليريكيين ليكمل دروسه في كلية المجمع ذاته . وبعث بالاستئناة الى نيافة الكردينال بواسطة الاستاذ متى شهوان عينه ، وكتب الى هذا ايضاً يترجاه بصفته المارونية ان يتوسط له بذلك لدى نيافة الكردينال وحيث يلزم . وظنّ ان الامر يبقى سراً من الاسرار اذ كان قد احتاط له وفصله خلسة عن جميع الناس حتى عن الرؤساء ، فاذا به يفتضح امره اذ ورد اليه الجواب بواسطة رؤسائه في مدرسة غزير ، وبواسطة المنبوط الذكر البطريرك بولس مسعد . فاستدعاه هذا في الصيف وعاتبه بحدة صدر وفكاهة ابوية قائلاً : صرت تكاتب الكردنالة رأساً دون ان تسأل عنا ! ثم في الحال امره ان يستعدّ للسفر الى عاصمة الكثلكة لاكمال دروسه اللاهوتية ، وعبثاً بُذلت الجهود لارجاعه عن قصده بالمخاوف التي خُوّف بها من حيث رداءة المناخ في رومية ، وغير ذلك من المصاعب الجمة .

شخص الياس الى رومية في اوائل حزيران ١٨٦٦ . وصرف في كلية مجمع نشر الايمان المقدس ، تحفّ به العناية الالهية اربع سنوات انتهت في حزيران من سنة ١٨٧٠ ، وقد كللته بنجاح باهر وهو اكليل الملفنة بعد ان كانت رافقته طيلة الاربع السنوات بنجاح قلّ نظيره ، فكان المثل الاعلى لجميع تلامذة تلك الكلية الجامعة بين جدرانها من كل ابناء البشر من مشرق الشمس الى مغربها ، سواء كان في الفضائل الكهنوتية او في العلوم الكنسية او في النشاط والنجاح . واما الملفنة فقد احرزها بتفوق في اللاهوتين النظري والادبي ، وفي الحق القانوني

والتاريخ الكنسي، ما خلا اتقانه اللغتين الايطالية والبرانية.

في كلية المجمع كان رفيقاً لنحو الف طالب اكليريكي اجتمعوا في عاصمة الكثلكة من جميع انحاء العالم ، فكانوا هنالك كأنهم معرض الشعوب في الالوان والعادات والاخلاق والتهذيب والفطرة. فأثر فيه ذلك تأثيراً شديداً جعل روحه كاثوليكية ، اي جامعة لكل انسان لا تقف عند الفوارق واختلاف الدين او الطقوس او القومية!

الكاهن

كان آخر من رُفعوا الى الدرجة الاسقفية في الطائفة المارونية باختيار البطريرك العظيم يوسف حبيش ووضع يده، المطران يوسف جمجع، رئيس اساقفة قبرس الطيب الذكر والممدوح الاثر . وقد كان ذلك الحبر القديس ممن مثلوا الطائفة المارونية في المجمع الڤاتيكاني الذي انعقد في رومية سنة ١٨٦٩، وكان لا يزال في عاصمة الكثلكة . فهو الذي رقى الاكليريكي الياس الحويك الى درجة الكهنوت المقدسة في ٥ حزيران سنة ١٨٧٠ وكأنه عندما وضع عليه يده ونفخ فيه قائلاً « اقبل الروح القدس » نفخ فيه ايضاً من روحه تلك الطاهرة ومن ايمانه الحيّ ومن جرأته ومن فضائله الاسقفية النادرة المثال ومن تمسكه بتقاليد الطائفة المارونية المقدسة وتعلقها برومية ، لان المطران جمجع كان واعياً قديراً لا يزال ابناء ابرشية قبرس يحجون الى قبره حتى يومنا ويطلبون شفاعته الفعالة. وقد كان يحمل في نفسه جميع التقاليد المارونية التي ورثها عن آبائه وجدوده المقدّمين في قصبة بشراي جارة الارز الخالد وحارسة وادي قاديشا وادي القديسين والبطاركة!

في ٩ آب ١٨٧٠ ، آبَ الخوري الياس الحويك الى وطنه لبنان . فما كاد ينتهي اليه حتى دخلت جيوش ايطالية رومية في ٢٠ ايلول من السنة نفسها ، منتصبة ملك البابا الزمني . فكان الحويك آخر شاهد من الشرقيين على ذلك الملك. وحالما درى بما جرى تأثر كثيراً ، ونسب الى العناية الالهية أوبته قبل وقوع الحدث التاريخي الذي احزن كل كاثوليكي في العالم أجمع.

بارك البطريرك بولس مسعد ، انصرف الخوري الياس الحويك ، بعد شهرين

من رجوعه، الى التدريس في مدرسة مار يوحنا مارون الاكليريكية. فكان راعياً ومرشداً واستاذاً للعلوم اللاهوتية وأباً غيوراً. فاحبه الطلبة كثيراً كثيراً وشعروا في عهده بحياة جديدة اكليريكية ما كانوا ذاقوا قط من قبل طعمها . فسر رئيس المدرسة منه في السنة الاولى ، وألقى عليه كل هنه. ولكن عاطفة من الخوف على مركزه ان يسلبه اياه الحويك بنشاطه وغيرته وعلمه تملكت منه ، وساعدها روح اقتصادية تبلغ الشح بل البخل ، فما كان منه في بدء النصف الثاني من السنة الثانية ، الا ان أثار في بعض الطلبة روح التذمر والتمرد على الاستاذ الخوري الحويك ، بحجة انه لا يحسن التدريس ، وان اساليبه غريبة حديثة لم يألفها ذلك المعهد الاكليريكي ، الى غير ذلك من الحجج الواهية . ثم اغتنم الرئيس تلك الفرصة، فصرف التلاميذ الى بيوتهم وقد غنم رجحين اولهما: انه تخلص من اجرة الخوري الياس في الاشهر الباقية من السنة المدرسية . وما كانت تلك الاجرة بالشيء الذي يكفي الكفاف، غير انها كانت ذات قيمة في عين الرئيس وتجاه عوز الخوري وفقر بيته ! وثانيهما : انه تخلص من نفوذ الخوري الجديد وأمن مزاحمته على منصب الرئاسة . وظن ان ذلك كان كافياً للخفض من شأن الحويك الملفان.

بيد ان العناية الالهية التي كانت تدبر مترجمنا هي التي دبرت ما توقع ليوضع ذلك السراج على منارة الطائفة فتستنير به ، لئلا يظل تحت مكيال المدرسة الاكليريكية في مار يوحنا مارون. فلا يبصر نوره الا نفر قليل عشي بصره. فيبهره النور الوضاح !

درى المغبوط الذكر البطريرك بولس مسعد بما حدث . فادرك بثاقب علمه وطويل خبرته وحنكته سر الامر . فاستدعى الخوري الياس الحويك الى الكرسي البطريركي في الديمان اثناء صيف سنة ١٨٧٢ وقال له : « تعال اليّ وابقَ الآن عندي» فاقام الحويك في الكرسي البطريركي منذ ذلك الحين الى وفاته ستين حولاً ! والبطريرك بولس مسعد كان من اعاظم البطاركة الموارنة ، جلس على السدة البطريركية ستة وثلاثين عاماً . وكان كجميع بطاركة الموارنة العظام ، بعيد النظر ، قديراً ، اباً للطائفة جميعها ، لاينظر الى احد من ابنائها

نظره الى رجل غريب. يفتش عن الذكي والفضيل واللامع ٍيًا كان ليقلده المهمة التي يستطيع ان يقوم بها حق قيام . فلم ينظر الى حلتا ، ولم يقل انها مزرعة حقيرة ، ولم يلتفت الى ان الحويك لم تكن له عزوة قوية ولا نفوذ اسرة ولا هو ابن دير القمر او اهدن او بشراي او زحلة ليرضي ابناء بلدته باختياره اياه لمنصب عالٍ . بل نظر الى الكفاءة في الفضيلة والعلم ورآهما في الخوري الياس الحويك فاختاره ليكون كاتباً لاسراره ، ومحامياً لدعاوى الزواج في ديوانه.

كان البطريرك الحويك يروي هذه الامور بسذاجته المعروفة الخاصة به ، وينسبها جميعها الى العناية الالهية قائلاً ان الله يستخدم غالباً ضعف البشر للوصول الى غاياته الكاملة القدسية التي لا ندرك اسرارها في هذه الحياة، ولكننا نشعر بها اذا ما تأملنا بتفاعيلها العجيبة الغريبة.

قضى الخوري الياس الحويك ، وهو كاهن ، في خدمة البطريرك مسعد سبعة عشر عاماً نوجزها بكلمة وهو انه كان عين البطريرك في كل شيء . فكان له كما كان يوسف لفرعون في الاشغال والاخلاص والامانة ، وكما كان يوسف ليعقوب في المحبة والاحترام . فارتاح ذلك الشيخ في آخر ايامه الجليلة واتكأ على ذراع الياس . فصار الخوري الياس الحويك في الطائفة والبلاد كأنه هو البطريرك، انما لم يبطر ولم يستبد، ولا خفض من مكانة البطريرك في شيخوخته، ولا استغل نفوذه لدى سيده لنفسه او لاهله، ولا خان سيده حتى ولا في اصغر الامور . واذا قلنا عنه انه كان البطريرك قدرنا كم كان البطريرك مسعد يثق بكاتم سره، بعلمه وفضيلته بامانته واخلاصه وباقتداره . وما عاد يجوز ان نذكر للحويك في تلك الحقبة اعمالاً بخصوصية تميزه عن البطريرك مخدومه . بيد اننا نذكر نتفاً من حياته تلك تُعرف امانته وفضيلته فيها ايضاً . فانه ما كان يستسلم مع الغضب ، ولا مع الحدة ، ولا مع الشدة اذا ما غضب او احتدم غيظاً او اشتد بحق مخدومه البطريرك في شأن من الشؤون سواء كان تجاه المرؤوس او تجاه الحكام الزمنيين او تجاه اي مرجع آخر . فعند ما كان يشتد سيده ، ويكلفه بكتابة امر شديد اللهجة ، او انزال عقوبة قاسية او وضع تقرير تشتم منه رائحة الغضب او الخروج عن الاعتدال اللازم للرؤساء ، ولاسيما

لبطريرك جليل عالم كالبطريرك بولس مسعد ، كان الحويك يتوقف عن الصدوع بالامر متوارياً عن انظار البطريرك ، او مجاهراً امامه بكل خضوع ودعة وجرأة بانه لن يكتب ذلك الامر باسم البطريرك تلافياً للعواقب التي لا تتفق مع كرامة البطريركية ولا مع كرامة البطريرك . وكثيراً ما كان يكلفه سيده امراً فيكتب خلافه . ويأتي اليه بعد حين ، عند ما يكون هدأ روعه وسكن جأشه ، فيقول له جاثياً على ركبتيه : « ان واجب الامانة والاخلاص لغبطتكم قد اضطرني ان اضع الجواب على هذه القضية بهذه الصيغة التي ، وان كانت تخالف لما امرتموني به او لما ارتأيتم وضعه في مجمع اساقفتكم ، فانها اقرب الى عواطف قلبكم الكبير والى ما تقتضيه مهام مركزكم الخطير » . فيتأثر البطريرك العظيم باخلاص الحويك ومقدرته ويصل برأيه معرضاً عن رأي السادة الاساقفة جميعهم في ذلك الامر . وما ذاك منه الا لمقدار ثقته بعلم الحويك واختباره وصدقه وترفعه عن كل غاية في خدمة البطريركية .

ومن امثلة استقامته في الديوان البطريركي أنه كان لاحد ابناء بلاد البترون ، بلاده ، دعوى . وكان يشكو ويتذمر على مسمع من الملاء بانه لا يقدر ان يصل الى غايته بحكم لمصلحته . فأشير عليه بالالتجاء الى الخوري الياس الحويك ليوصله الى مأربه ولو عن طريق المال . فاجاب : « لحاه الله اني التجأت الى هذه الواسطة فما استفدت شيئاً ، فهو لا يتزحزح عن قصده كالصخر لا يلين ولم يقبل مني ما عرضت عليه من المال الكثير » اما حكاية الرجل فانه دخل يوماً الى غرفة الخوري الياس في بكركي ، واقفل الباب وراءه . وجلس امام الخوري واخرج كيس نقوده وكان ممتلئاً بالذهب الرهّاج وقال له : خذ ما تشاء . بل خذ هذا الذهب كله واحكم لي . فأجابه الخوري الياس بابتسامة ورزانة : « أرجع كيسك الى عبك » . لاني اذا اخذت منك مالاً واعطيتك حقك تسبني وتقول : قد باعني حقي بيعاً ، واذا حكمتُ عليك تقول : اخذوا مالي وحكموا عليّ . واذا حكمتُ لك بالظلم تقول : باعوا ضمائرهم ، وانا اشتريتها بمالي . فالاصح ان يبقى مالك لك ونحن نجري العدل . فاذا كان الحكم في جانبك فزت بحقك دون ان تخسر عليه من مالك . واذا لم يكن في جانبك تعلم اننا حكمنا ضميرنا ولم

يؤثر فيها لا شفاعة ولا مال ..

هذا مثال من اعمال الخوري الياس الحويك في بكركي ، يُستدلّ منه مع صغره ، على معرفة من هو ذلك الكاهن . فقد كانت تجري له كل يوم حوادث من مثل هذا . وكان لامعاً لامعاً فتبلّج نوره في البطريركية . فما كان يظهر غيره فيها مع وجود الاساقفة الاجلاء . بيد انه لم يحسده احد لان لمعانه كان يشرق بواسطة البطريرك . فكان البطريرك كأنه شهاب مشع تُرسل من خلاله اشعة ذلك السراج الوهّاج الذي كان يعمل كل شيء . لسؤدد البطريركية وكرامة البطريرك ذاته ويمتد كل كرامة لشخصه كأنها سرقة يجب ان يعيدها الى صاحبها البطريرك !

هنالك العناية الالهية التي اصطفته عرّفته الى جميع اهل البلاد من اي طائفة ومذهب ومنزلة كانوا . ولم تقف معارفه وخدماته على الطائفة المارونية فحسب . والعناية الالهية هكذا تعدّ الرجال لاعاظم الشؤون بتهيئتها اياهم رويداً رويداً في مختلف المهام فلا يشعر الرجل منهم الّا وقد صار عظيماً ، بل يصير زعيماً وعظيماً وقائداً ومصلحاً ولا يدري بذلك ، اذ لا يصل الى تلك المنزلة بحكم الطفرة بل بقوّة التدرّج غير المحسوس .

اما كم كان الخوري الياس الحويك يستخدم نفوذه لدى البطريرك ومقدرته للقيام بالاعمال الخيرية وخدمة الناس في مصالحهم ، والفقراء في فقرهم ، والاحداث لتهذيبهم ، والمظلومين لرفع الظلم عنهم ، فحدّث عنه ولا حرج . ان مجلداً ضخماً لا يكفي لذلك . فحسبنا ان نقول ان البطريرك محمد عرف بكاتم سره الفضائل الكهنوتية العالية والعلم الكنسي الراسخ والمقدرة الادارية النادرة المثال والاخلاص والامانة للطائفة والكنيسة الكاثوليكية وللحبر الاعظم وللبنان . فرقّاه الى الدرجة الاسقفية في ١٤ ك ١ سنة ١٨٨٩ وجعله مطراناً شرفياً على عرقا ونائباً روحياً له . فكان ذلك العمل المجيد من البطريرك بولس مسعد العظيم مسك الختام في حياته الطويلة الممدوحة . وقد رقد رقاده الاخير مع البطاركة سلفائه القديسين بعد ان خلّف الطائفة والوطن حبراً سيكون له بعد حين خير خلف يتمّ على يده اعظم خير الطائفة والوطن .

(الفاصلة)